اكتشاف تزيينات جصية مجسمة في منطقة فندق الميريديان بتدمر*

كلاوس بارلاسكا

جامعة فريدريك الكسندر، معهد الآثار الكلاسيكية ـ فرانكفورت ـ ألمانيا

ترجمة: محمد قدور

عثر في عام ١٩٧٥ في أسبار مشروع فندق الميريديان (فندق الشام حالياً) على مجموعة كبيرة من الجص الجداري المزخرف ذي النوعية العالية جداً. بدأ المنقب خالد الأسعد على الفور بالمتابعة وتركيب أجزاء الكسر الكثيرة. وبهدف التعاون المشترك مع المنقب آنذاك قمت في خريف الأعوام ١٩٨١ و١٩٨٧ تؤازرني زوجتي انغماري بارلاسكا بالتنسيق الدقيق لهذه المواد وتركيب الكسر الكثيرة الأخرى[١]. كما نشرتُ دراسة أولية في عام ١٩٧٥ حول مكتشفات محلية أقدم من هذا النوع[٢]. درست بضع قطع مشابهة من مواقع سورية أخرى والنظائر المميزة في بقاع أخرى من الامبراطورية الرومانية. ومن المكتشفات الجصية المشابهة ذات التأريخ الأحدث قام رودلف فيلمان عام ١٩٨٥ بمعالجة المواد المطابقة المستمدة من التنقيبات السويسرية في نطاق معبد بعلشمين[٣]. وقد نشرت بضع عينات للمكتشفات الجصية من أحد أسبار هارالد أنغولد سنة ١٩٢٤ في دراستي المذكورة عام ١٩٨٥. وفي هذه الأثناء نشر غونهلد بلوغ بالكامل القسم الأكبر من مجموعة هذه اللقى الموجودة حالياً في كوبنهاغن[٤]. يعود الاكتشاف الأكبر لمثل هذه التزيينات الجصية في تدمر الى ماعثر عليه رايموند دورو ١٩٣٩ - ١٩٤١ في البيت المزدوج الذي كشفه شرق منطقة معبد بل، وقد قام ادموند فريزول بالتحضير لنشره[٥]. لم تستنسخ من هذه المواد إلا عينات حتى الآن[٦]، عام ١٩٨٨ اكتشف الآثاريون البولونيون تزيينات جصية أخرى[٧].

عرضت أمثلة نموذجية من حفرية الميريديان في المعارض المتنقلة المختلفة وذلك منذ عام ١٩٨٢. من بين ستة رؤوس جصية ذات نقش نافر رفيع وهناك أربعة من مجموعة الميريديان وقع عليها اختياري للقى الرومانية من سورية للمشاركة في معرض (بلاد بعل) والتي عرضت أولاً في ـ برلين (الغربية)[٨]. وتضمن المعرض الذي أقيم أولاً في وارسو عام ١٩٨٦ حول تدمر ست عشرة كسرة من جصيات الميريديان، من بينها بضع قطع غير مجسمة تعرض لأول مرة، اختارها بشكل أساسي ميشال غاوليكوفسكي والعلماء البولونيون الآخرون[٩].

احتوت كتب الأدلة المتواضعة نسبياً حول المعارض المماثلة في وارسو ولينينغراد وبرلين (الشرقية) وبودابست نسخاً قليلة فقط من هذه المواد. لم تصور سائر القطع المعروضة إلا في الدليل الصادر عام ١٩٨٧ من قبل ارفين روبرشتبرغر حول المعرض المقام في مدينتي لينز وفرانكفورت. وتقدم القطع المنتقاة انطباعاً جيداً حول التنوع والنوعية الرفيعة للزخارف الجصية المكتشفة في منطقة المريديان[١٠].

يقع موضع الاكتشاف في الجزء الشمالي من المنطقة الحالية للفندق، حوالي ٧٥م الى الشرق من

نبع أفقا المتاخم من الخارج للسور الغربي لمنطقة الفندق[11]. وتتبع الكسر الجصية لبناء لم يتم الكشف عنه بالكامل، والقسم الأكبر من صالة كانت مخصصة للأغراض الطقسية مع مذبح للبخور ومذبح متعدد الأجزاء. بالإضافة الى ذلك عثر على أربعة مذابح تامة في هذا النطاق، ثلاثة منها عليها نقوش كتابية، وتظهر على الرابع زخرفة نافرة شديدة التآكل لامرأة مصلية[12].

يلحق بالصالة الطقسية ذات الأبعاد ٩,٢٥ X ٦,٤٠م بهو مربع، ومن المحتمل أنه كان يحتوي على زخارف جصية أيضاً. هناك عدد كبير من الكسر ذات مقاطع ملساء يبدو أنها أجزاء من الباب والكوى الجدارية في القاعة الرئيسة. تحظى العناصر المجسمة والرؤوس بخاصة باهتمام مميّز. وكانت تستخدم في أغلبها كتزيين لأطناف بسيطة نسبية مع شغل مسطح يظن بأنها كانت موجودة على ارتفاع ثلثي الجدران[13]. وقد استطعت تجميع بضعة أجزاء منها (الشكل ١). ينبئ التناسب المتباين للرؤوس وكذلك العرض المختلف للأطناف عن وجود أنظمة زخرفية متباينة. فسلسلة الرؤوس الكبيرة ذات الزخرفة النافرة الرفيعة المدهشة لها وجهات غير منتظمة، حيث تتجه بشكل مائل الى الأسفل، لذلك لاتترك أثراً كأنها عناصر أفاريز معمارية، بل أقرب ماتكون الى تزيين منفصل مثبت في الطنف.

علاوة على ذلك من المؤكد وجود طيور[14] (الشكل ٢) وأزاهير متفتحة رائعة[15] في هذا النطاق، يضاف اليها أيضاً رؤوس وأعضاء حيوانات أخرى مثل مقدم أسد أخّاذ (الشكل ٣)[16].

لاتتميز الرؤوس الآدمية فيما بينها من خلال نسبها الكبيرة فحسب، وإنما باختلاف موضوعاتها أيضاً. من القطع الأكثر تأثيراً بضعة أقنعة حزينة ذات تسريحات رائعة (الشكل ٤)[17] ويميّز أحد الأقنعة الملتحية من خلال قلنسوته الفريغية على أنه ملك مسرح شرقي (برياموس الطروادي؟)[18]. ولربما يدل أحد الرؤوس غير الملتحية الذي يرتدي غطاء الرأس ذاته على الأمير باريس[19]. يتبع لسلسلة الأقنعة المسرحية المذكّرة الكبيرة قطع أنثوية مقابلة[20] (الشكل ٥) فيتكرر ظهور رؤوس هائجات وجنيات[21]. يمكن أن تندرج هذه المجموعة بمفهومها الواسع ضمن الحلقة الديونيزية، والتي تعد منها أيضاً الأقنعة الحزينة.

من القطع القليلة المسماة الرؤوس ذات الحجم الصغير محسنان اثنان مميزان بزينتهما بالأرياش[22] (الشكل ٦). يحتمل أن يفسر رأس بخوذة يونانية على أنه آرِس[23] (الشكل ٧). ومما يؤسف له عدم وجود معلومات حول المواضع المضبوطة لاكتشاف الكسر المتفرقة. لذلك يتعذر تنسيق الموضوعات المجسمة المختلفة حسب مجموعات محددة. يندرج هذا التحفظ على كسر الأجسام[24] بخاصة والكسر الصغيرة، التي يبدو أنها تتبع للنقوش النافرة. في حالات استثنائية فقط كما هو الحال في رأس آرس المخمن أمكن تركيب كسرتين متجانستين (الشكل ٧). لايدعو هذا الكشف الى الدهشة لأن الرؤوس كانت تُشغل على الدوام منفصلة ثم يصار الى تثبيتها بخوابير جوفاء. يتبع للتفصيل المعماري للجدران أيضاً تشكيل فاخر يعرف بالقنصليات المزهرة (الشكل ٨). لبعضها منظر مائل من خلال تأثيرها المستغرب الحاذق. وقد استخدمت شجيرة النخيل الجميلة (الشكل ٩) كركن في القبة المنحنية (؟).

من ناحية الطراز تعتبر الزخارف الجصية من موقع المريديان بلا شك خارجة عن الأعمال الرومانية الصرفة، أي أنها لفنانين سوريين - غربيين. انطلاقاً من هذه الناحية تقدم مجموعة المكتشفات مثيلاً لها كالفسيفساء المعروفة المكتشفة في البيت المزدوج الكبير خلف منطقة معبد بل[25].

وكما هو الحال في هذا البيت الخاص الثري المجهز بمثل هذه الأعمال الجصية الغنية فإن الصالة الطقسية القريبة من نبع أفقا زودّت أيضاً بأعمال جصية رائعة، ويبدو أنها ترجع الى أواخر زمن ازدهار تدمر، أي في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي.

* راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي.